التصوّف في البيئة غير الإسلامية

قراءة في المشهد الأوروبي بين الدعم السياسي والفراغ العلمي

محمد بن عبد الله العقدي

في البيئات غير الإسلامية، ولا سيما الأوروبية، لا تنشأ الظواهر الدينية غالبًا نشأةً طبيعيةً نابعةً من عمقٍ علميٍّ وتراكُمٍ تاريخيٍّ كما هو الحال في العالم الإسلامي، بل تتكوَّن في الغالب على هيئة «مشاريع مُدارة»، تُغذَّى سياسيًا، وتُقدَّم ثقافيًا، وتُسوَّق بوصفها النسخة «الآمنة» أو «المنضبطة» من الإسلام. ومن هنا يبرز التصوّف – بصوره الطُّرُقيّة والفلسفية – بوصفه المرشّح المفضّل للأنظمة الغربية في تشكيل ما يُعرف بـ«الإسلام الأوروبي» أو «الإسلام الفرنسي والبريطاني».

إنَّ التصوّف في هذا السياق لا يُطرح بوصفه سلوكًا تعبُّديًا فرديًا، ولا تزكيةً منضبطةً بالوحي، بل يُعاد إنتاجه كخطابٍ هجينٍ: نصفه روحاني، ونصفه فلسفي، تُنزَع منه حدّة التوحيد، وتُخفَّف فيه معالم الولاء والبراء، ويُعاد تأويل النصوص فيه بما ينسجم مع الذائقة الليبرالية الغربية. وكأن المطلوب إسلامٌ بلا شوكة، ودينٌ بلا مركز، وروحانيةٌ سائبة لا تصادم تصوّرات الدولة ولا تُقلق البنية الفكرية السائدة.

وفي هذا الإطار، يبرز حضور شخصياتٍ أكاديميةٍ أسلمت أو تبنّت التصوّف عبر بوابة الفكر الغالي، كالدكتور عبد الحكيم مراد (تيموثي وينتر) في السياق البريطاني، وأمثاله ممن يقدّمون فكر ابن عربي، والتصوّف الفلسفي، وتيارات الغلوّ الصوفي، بوصفها «الجوهر العميق للإسلام». فيتحوّل ابن عربي من شخصيةٍ تاريخيةٍ محلّ نزاعٍ علميٍّ واسع إلى «مرجعية روحية كونية»، ويُقدَّم الغزالي – لا بوصفه عالمًا له اجتهاداتٌ وأخطاء – بل بوصفه الجسر النهائي بين الإسلام والحداثة الغربية.

وهنا تتقاطع ثلاثة مسارات خطيرة في البيئة الأوروبية:

مسار التصوّف الطُّرُقي القادم من العالم الإسلامي، محمولًا بثقافته، وأعرافه، وأحيانًا بخرافاته، دون غربلة علمية ولا تأصيل شرعي.

ومسار التصوّف الفسفي الغالي المنسوب إلى مدرسة ابن عربي، حيث تختلط العبارات، وتُسيَّل العقائد، وتُمرَّر مفاهيم وحدة الوجود والفيض والحقيقة المحمدية في ثوبٍ أكاديميٍّ أنيق.

ومسار الدعم السياسي الغربي الذي يرى في هذا الخليط ضالته؛ إذ هو إسلامٌ قابل للتطويع، سهل الاحتواء، بعيد عن سؤال الشريعة، والحاكمية، والجهاد، والهوية الجامعة.

أما العامل الرابع – وهو الأخطر – فهو الفراغ العلمي وجهل كثير من المسلمين في تلك البيئات. فالغالب أن المسلمين هناك إمّا نشؤوا بعيداً عن حلقات العلم الراسخة، أو تلقّوا دينهم عبر خطباء عابرين، أو أئمة وافدين لا يملكون مشروعًا علميًا متكاملًا، أو خطابًا تربويًا طويل النفس. فلا يكاد ينتقل العلماء الراسخون إلى تلك الديار انتقال إقامةٍ وتأصيل، وإنما يكون الحضور في صورة زياراتٍ موسمية، أو محاضراتٍ عابرة، لا تصنع وعيًا، ولا تبني جيلًا.

في هذا المشهد، يصبح التصوّف المدعوم أشبه بماءٍ ملوَّنٍ يُسكب في أرضٍ عطشى؛ يروِي ظاهرها، لكنه يُفسد تربتها. وتغدو المراكز الصوفية كأنها مصابيح زينة في ليلٍ طويل: تلمع، لكن لا تهدي الطريق. بينما الإسلام الحقّ – بمنهجه السلفي الأصيل – كالنور الأبيض: صريح، كاشف، لكنه لا يُحبّذ لدى من اعتاد الإضاءة الخافتة.

ومع ذلك، لا يجوز أن يُغفل الدور المهم الذي تقوم به المراكز الإسلامية السلفية في أوروبا؛ تلك المراكز التي تعمل – في صمتٍ غالبًا – على تعليم العقيدة الصحيحة، وربط الناس بالكتاب والسنة، وبناء المسلم الواعي بهويته دون صدامٍ أعمى ولا ذوبانٍ مائع. وهي – وإن كانت أقلّ دعمًا، وأضيق موارد – إلا أنها تمثّل خط الدفاع العلمي الأخير أمام موجة «التدين المُفرَّغ».

إنَّ التنبيه إلى خطورة هذه البيئة ليس من باب التخويف، ولا من باب إسقاط التجارب المحلية على واقعٍ مختلف، بل من باب الفقه بالواقع، ومعرفة مواضع الخلل. فأوروبا اليوم ليست مجرّد ساحة دعوية، بل مختبرٌ تُعاد فيه صياغة الإسلام، فإن تُرك الأمر بلا علم، كُتبت الصيغة بغير يد أهله.

وإذا لم يُحمل الإسلام إلى تلك البيئات بميزان السلف: علمًا، وتوحيدًا، ومنهجًا، وأخلاقًا، فإن غيره سيحمله بميزان السياسة، والفلسفة، والذوق، ويُسمّيه – زورًا – إسلامًا.